الإيرانيون.. ونحن: وقفة مع الشقيق!

سامي لطيف*

■ قلت للمرجع الإسلامي الكبير آية الله العظمى محمد حسين فضل الله لماذا لا تطلبون من المراجع الدينية والسياسية لإخواننا الشيعة في العراق، ان يقوموا بتحديد جدول زمني لانسحاب قوات الاحتلال الأمريكي، فان في ذلك إثباتا دامغا لموقفهم الذي تثار بشأنه التساؤلات من الاحتلال، كما ان فيه تطمينا لإخوانهم المقاومين ونزعا لإحدى فتائل الصراع المذهبي الذي بدأ ظلامه يلف العراق.

اقدر ذلك الرجل واحترمه كثيراً، ولكني لا أملك سوى الاختلاف معه أحيانا وان اتفقت معه أحايين، وثمة حوار سياسي وفكري مفتوح بيني وبينه منذ عقد ونيف، اكتشفت فيه مع تداعيات الأحداث صوابية وجهة نظري في تقويم أشخاص وافعال، من هؤلاء مثلاً إبراهيم الجعفري، اعتبرته قبل عامين حصانا أمريكيا آخر واعتبره السيد فضل الله رجلاً مخلصاً، وابلغني انه كان وكيله الشرعي عندما كان يقيم في لندن، كذلك موفق الربيعي واسمه الحقيقي كريم شهبوري ـ والذي تصادف أن كان في زيارة للسيد فضل الله قبيل زيارتي له بأيام، كذلك يرى فيه السيد شخصاً جديراً بالثقة، أريد أن أقول إن الاختلاف في التقويم ليس يفسد للود قضية، لان مكانة السيد الفكرية والفقهية وموقعه المقاوم العتيد ودعوته الدائمة للوحدة الإسلامية وللوحدة العربية، ومواقفه الداعمة لكل حركة جهادية ومقاومة على المستويين العربي والإسلامي تجعلنا نتجاوز الاختلاف دائما إلى الرغبة في التواصل واللقاء، أسوة بعدد من أعلام الشيعة المقاومين فكرياً ودينياً وسياسياً، نحترمهم ونجلهم وتربطني بهم شخصيا علائق الود والاحترام الخالص، ومن هؤلاء آية الله محمد جواد الخالصي، وآية الله المهدي الخالصي، وآية الله أحمد الحسني البغدادي، والسيد الجليل هادي الخالصي في العراق، خريجو تلك المدرسة النضالية الجهادية، المدرسة الخالصية في الكاظمية ذات الجذور التاريخية في مقاومة الاحتلال البريطاني، والإسهام المتميز للإمام الخالصي في ثورة العشرين، كذلك العلامة الكبير والمفكر والشاعر الأخ الفاضل السيد محمد حسن الأمين في لبنان، والذي يستمع إلى خطاب هؤلاء السادة العلماء أو يقرؤه يلحظ تميزه كتعبير أصيل عن التشيّع بمضمونه العروبي النابع من الانتماء إلى آل البيت المحمدي الطاهرين، وهؤلاء وغيرهم للأسف يكابدون الاضطهاد والمحاربة من الصفويين، الخط الآخر في التشيّع الذي يحبذّ المظلة الفارسية ويعطيها الأسبقية على العربية.

من هنا اعتقد اننا في معرض تناولنا للأزمة المترتبة على الاحتلال الأمريكي للعراق، وما تفرع عنها من كوارث وأزمات، ينبغي في الشق المتعلق بالعلاقة مع إيران وبحث الدور الإيراني في العراق، أن نتوقف عند ظاهرة التوافق على تأييد عملية الاغتيال الهمجي المسمى إعداماً للرئيس الشهيد صدام حسين، بين كل من المراجع الدينية والقيادات السياسية الإيرانية والإدارة الأمريكية صاحبة قرار الإعدام، وأيضا المسؤولين الصهاينة، هذا التوافق الملفت على المحاكمة المهزلة، ثم على الإعدام يحفزنا إلى التساؤل المحق حول طبيعة الاستراتيجية الإيرانية في العراق، لا بل للتساؤل: كيف يفهم الإيرانيون الاستراتيجية؟

لقد كان الكيان الصهيوني في قلب المشروع الأمريكي لاحتلال العراق، وبعد زوال خطر الجبهة الشرقية بذلك الاحتلال والانحلال الذي لحق بالنظام الرسمي العربي، احتلت إيران بشكل متزايد مركز الاهتمام الأول في الذهن الإسرائيلي، ولعبت الحكومة الإسرائيلية دورا تحريضيا بارزا في الولايات المتحدة لدفعها لمواجهة ما أسمته بالخطر الإيراني، وكما أسهمت السياسة الإسرائيلية في صياغة وإصدار القرار رقم 1559 بشأن نزع سلاح حزب الله في لبنان، فإنها دفعت الأمور أيضا باتجاه فرض العقوبات الدولية على إيران، وأعربت عن ارتياحها لتلك العقوبات حينا وعن قلقها لعدم كفاية تلك العقوبات حينا آخر، والإيرانيون قد سمعوا بآذانهم تهديدات اسرائيلية مباشرة بتوجيه ضربات استباقية عسكرية إلى منشآتهم النووية ومنظوماتهم الصاروخية، وقد ردوا من جانبهم بتهديدات مضادة، وسط ذلك كله كيف نفهم ما تعمله إيران في العراق؟

* إيران تعمل على تأجيج المذهبية على حساب الدين في العراق، وعلى استحضار النكبة التي حلت بالشيعة تاريخيا، والتي يمكن بمنتهى الحيادية القول انهم هم أنفسهم أسهموا فيها بنصيب وافر عبر سلسلة من الأخطاء، تستحضرها لتكون محركا ودافعا للعمل السياسي.

* إيران تعمل على إطالة عمر الاحتلال الأمريكي للعراق بعدم دعمها للمقاومة ضده، والرموز الدينية المحسوبة على الخط الصفوي ضمن الشيعة مثل آية الله السيستاني، تسرّع لمهادنة الاحتلال وتضمن التعامل مع الاحتلال ومنتجاته وتفريخاته الحزبية وازلامه في سلطة عميلة له وتخضع لسياساته.

* إيران تسعى إلى استبعاد وتقزيم وتهميش السنة في العراق، فهل يعبر ذلك كله عن مصالح إيران الاستراتيجية وهل يخدمها؟

إذا كان الأمر كذلك فكيف تفهم إيران الاستراتيجية؟

إننا نلاحظ ان الكلام الإيراني يدل على فهم استراتيجي ولكننا نلاحظ في الوقت ذاته ان العمل لا يدل على الكلام.

من ذلك على سبيل المثال، انه في الزيارة الأخيرة لطالباني إلى إيران نهاية الحرث تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي، صرح الإمام الخامنئي ان الخطوة الأولى لإحلال الأمن في العراق، هي رحيل الأمريكيين منه، كلام جيد، ولكن الإذاعة المرئية الإيرانية ما لبثت ان نقلت بقية التصريح المنسوب للخامنئي، وفيه ان سياسة أمريكا تطبق في العراق عبر وسطاء سماهم بالأسماء وهم: «الإرهابيون» و«البعثيون»!

تعالوا نبحث عن احد ما يقول لنا ماذا يعني الإمام بذلك، فأمريكا هي التي تسمي من يقاومونها في العراق بالإرهابيين، وأمريكا هي التي تتهم البعثيين السابقين في العراق بأنهم رأس الحربة في قوات المقاومة العراقية ضدها مع تنظيم القاعدة، أي ان إيران وبوضوح تام تتفق مع أمريكا ضد المقاومة العراقية وضد المقاومين للاحتلال في العراق، وان كانت هي تدعو أمريكا للرحيل، وهذان مفهومان متناقضان يعنيان شيئا واحداً في الاستراتيجية أو في الفهم الاستراتيجي، وهو ان إيران لا تريد نفوذاً امريكياً في العراق، لأنها تريد نفوذها هي، ولا تريد قرارا أمريكيا في العراق لأنها تريد أن يظل القرار لها وحدها.

فهل هذه هي الاستراتيجية الإيرانية في العراق؟

وهل يمكن أن تخدم هذه الاستراتيجية الإيرانيين؟

ومرة أخرى.. كيف يفهم الإيرانيون الاستراتيجية؟

الباحث في مركز هرتسيليا الإسرائيلي للدراسات غاي باخور، كتب قبل أسبوعين انه في حالة لم يسفر الاحتلال الأمريكي للعراق عن تقسيمه فان الحرب تكون فاشلة من أساسها ولم تحقق أهدافها.

وفي معرض الحوار الداخلي الإسرائيلي على هامش ترقب ما ستسفر عنه فترة المراجعة التي تقوم بها الإدارة البوشية لسياساتها في العراق، أدلى عاموس ماك الرئيس الأسبق لشعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية بدلوه فكتب: إن غياب العراق عن خريطة المنطقة بمساحته الحالية ووحدة أقاليمه، سيكون احد العوامل المهمة في تقليص المخاطر الاستراتيجية على «إسرائيل» والعالم العربي من دون العراق الموحدّ هو افضل لـ«إسرائيل».

أما الجنرال داني روتشيلد رئيس قسم الأبحاث في جهاز الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، فقد كتب انه يتوجب على «إسرائيل» تطوير علاقات مع الكانتونات التي تنشأ في العراق الجديد وعلى أشلاء «العراق القديم».

فالإسرائيليون لا ينقصهم الوضوح ولا تعوزهم الصراحة في تحديد أهدافهم وخطتهم الاستراتيجية في العراق، ولذلك فان انسجام الدور الإيراني مع تلك الأهداف وتناغم السياسات الإيرانية مع تلك الخطة يثيران عندنا من التوجس بقدر ما يثيران من الحنق، ويبدو ان أحدا في طهران قد أضاع البوصلة منذ فترة ليست بالقصيرة، فإيران لا تفعل في العراق سوى الخطة الاستراتيجية الإسرائيلية وسياساتها هي خدمات مجانية للاحتلال الأمريكي ولولاها لما تحمل البقاء ثلاثة اشهر وليس ثلاث سنوات.

* فإيران هي التي أسهمت في احكام الحصار الأمريكي الظالم على العراق منذ 1990.

* إيران هي التي سلّحت ودربت ونظمت ومولت الميليشيات المذهبية الصفوية لزعزعة الاستقرار في العراق لأكثر من عقدين من الزمن قبل الغزو.

* إيران شاركت مباشرة في الغزو الأمريكي للعراق عام 2003 من خلال فيالقها العميلة وتنظيماتها وتشكيلاتها المذهبية والسياسية والعسكرية التي كانت في الواقع رأس الحربة لذلك الغزو:

1ـ فيلق بدر.

2ـ جيش المهدي.

3ـ حزب الدعوة.

4ـ جماعة الجلبي.

5ـ المراجع الدينية الكبرى والتي هي في الأساس من أصول فارسية وباكستانية وأفغانية وهندية.

* إيران أيضا لعبت دوراً لم يعد مستتراً في مساعدة الغزو الأمريكي لأفغانستان مدفوعة بنفس الدوافع المذهبية الحاقدة، ونعود هنا إلى التصريحات المشهورة التي أطلقها الشيخ رفسنجاني والتي أكد فيها انه لولا الدور الإيراني المساعد لما تمكنت أمريكا من غزو أفغانستان ومن ثم السيطرة عليها.

من حقنا إذن أن نسأل الإيرانيين بمنتهى القوة: لماذا يساعدون الإسرائيليين والأمريكيين ضد الأمة العربية وضد المسلمين؟

إننا دعاة وحدة عربية، ودعاة وحدة إسلامية، ونحن لا ننكر اننا قد استبد بنا الفرح لتفجر الثورة الإسلامية في إيران ضد الشاه، واننا قدرنا كثيرا وقفة الإمام الخميني التاريخية ضد أمريكا وضد الصهيونية والإجراءات التي اتخذتها الثورة غداة قيامها لصالح القضية العربية والإسلامية الأولى قضية فلسطين، ونحن كنا كعرب وكمسلمين ضد النظام الرسمي العربي في عدائه لإيران وفي انحيازه للغرب ضدها على كل صعيد، بل إننا كنا قد عارضنا صدام حسين في حربه ضد إيران منذ بدايتها، لأننا علمنا ان هذه الحرب خدمة غير مباشرة لأعدائنا جميعا نحن والإيرانيين، وفي مقدمة هؤلاء الأعداء الكيان الصهيوني نفسه، عارضنا الرئيس صدام في حربه على إيران واعتبرناها اضعافا غير مبرر لمنظومة الأمن القومي ـ الإسلامي وشذوذا عن خط استنهاض الأمة في مواجهة الصهيونية والإمبريالية الأمريكية، وعارضنا تلك الحرب منذ بدايتها لأننا شعرنا اننا كلنا بسببها خاسرون، وهي حرب تحتاج منا ومن الإيرانيين إلى إعادة قراءة لأسبابها ونتائجها كي لا تتكرر الكارثة وكي نجتهد معاً لمعالجة الأخطاء قبل استفحالها، حيث ان مؤشرات مستجدة على وقوع مثل هذه الأخطاء تملأ الواقع السياسي اليومي الراهن.

ولعل لوقفتنا المعارضة لحرب صدام ضد إيران المنطلق ذاته الذي يحفزنا اليوم لمعارضة ما نراه تجاوزاً ايرانياً لمصالح الأمة العربية والمصالح الإسلامية المشتركة، كنا نرجو أن تراعيها طهران وتحرص عليها كما نحرص.

ما كنا ننتظر من إيران الثورة الإسلامية، كما لا يزال اسمها الرسمي كدولة، ان تطعننا من الخلف وأن تنقلب على الأمة العربية التي تتداعى عليها الأمم، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها على حد وصف الرسول الكريم (ص) قبل 1500 عام، وما كنا نظن ان إيران التي دعمتها الأمة العربية إبان حكم الشاه العميل، فاستقبلت القاهرة ودمشق وبغداد وبقية العواصم العربية، قادة ثوراتها وأحرارها والمناضلين والوطنيين والمجاهدين من رجالها خلال الخمسينات والستينات من القرن الماضي، وعلى رأسهم الإمام الخميني رحمه الله، ما كنا نظن انها سوف ترد الجميل بان تسمح لنفسها بالتطابق مع الأهداف والمصالح الأمريكية والإسرائيلية في العراق، كما تبدى جلياً عقب إعدام الرئيس الشهيد.

إن صدام حسين كان أي شيء ولكنه لم يكن رجلا مذهبياً، تتفق معه وتختلف معه بدرجة أو بمائة درجة، ولكنك لا يمكنك أن تصمه بالطائفية أو التمذهب، تشهد على ذلك القائمة التي نشرها الاحتلال غداة غزوه للعراق للمطلوبين وعدد أفرادها 51 قياديا ثلثاهم كانوا من الشيعة.

وكوادر البعث العراقي الذي اختلفنا معه من منطلق قومي عربي إلى درجة العداء في يوم من الأيام ولأسباب تحتاج منا جميعا إلى مراجعة موضوعية وتاريخية بهدف البناء لا الهدم، هذا الحزب كانت معظم قياداته وكوادره ورموزه من الشيعة، بل وعدد كبير منهم من الأكراد أيضا.

فالحقيقة الناصعة إذن ان أبا عدي الشهيد ما كان طائفياً أو مذهبياً، وكان لمواقفه وسياساته ضحايا من السنة ربما اكثر من الشيعة، كنا نحن القوميون ضده في أحيان كثيرة وهو قومي وعروبي، وعارضناه في الحرب ضد إيران كما عارضناه في احتلال الكويت، كان دخول صدام الكويت استدراجاً من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، تماما كما ان الإخوة في الكويت بدورهم استدرجوا من قبلها قبيل ذلك مباشرة فيما يتعلق بسياستهم لضخ النفط، استدرجت العراق والكويت معا لإضعاف العرب كلهم ولصالح الكيان الصهيوني والاستراتيجية الأمريكية في الوطن العربي، عارضنا صدام في ذلك كله ولكننا لا يمكن أن نتنكر لدوره البطولي والجاد والتاريخي في السعي لبناء دولة حديثة قوية يتوحد فيها كافة أبناء الفسيفساء العراقية، وتندمج الفعاليات العراقية أياً كان انتماؤها المذهبي أو الطائفي أو العراقي، كما لا يمكن أن نتنكر لوقفات العراق القومية في عهده لصالح شعبنا العربي في فلسطين ودعم شعبنا في مصر وفي مساعدة شعبنا في الأردن، وفي الانحياز لخيار مواجهة الكيان الصهيوني وعدم الاعتراف به أو الاستسلام له، كنا معه في ذلك ونتحسر اليوم على أيامه ونحن نشهد الاقتتال والتهجير والذبح على الهوية والتمثيل بجثث العراقيين من قبل الميليشيات المجرمة التي استدارت للحرب على الشعب العراقي بدلاً من أن تتوجه للمعركة الحقيقية ضد الاحتلال وأعوان الاحتلال مدعومة بنزعة فارسية وصفوية متواطئة، بل نتحسر ونحن نرى الشركات الإسرائيلية ترتع في شتى أنحاء العراق، والموساد الإسرائيلي يباهي بدوره في تفخيخ الوضع الأمني فيه، والنفط العراقي وخيرات العراق تذهب لشركات هالبيرتون وتصب في جيوب آل بوش وآل تشيني وآل رامسفيلد.

ترتكب إيران خطيئة كبرى بحق الأمتين العربية والإسلامية، ومن حقنا أن نطالبها بمراجعة سريعة بل وفورية لاستراتيجيتها في العراق، إن لم نطالبها بتعديل فهمها الخاص بالاستراتيجية فكل شيء واضح، بل وفي غاية الوضوح، وفي إيران ـ نحن نثق تماما ـ قوى ورموز عاقلة رشيدة حكيمة لديها الرغبة ونتمنى أن تكون لديها القدرة على تصحيح الأخطاء والتطهر من الخطايا.

على إيران أن تدرك اننا قد نبدو ضعفاء مشتتين الآن كعرب، إلا أن عوامل النهوض فينا قوميا وإسلاميا لما تزل تقوى، وعوامل الضعف التي مردها النظام الرسمي العربي ليست أبدية ولا قاهرة.

لا ينبغي للإيرانيين أن يتصورونا حفنة من الجثث، فالحياة تدب في أوصالنا وتقوي عزائمنا من نواق الشط إلى المنامة، ومجالس العزاء التي أقيمت للبطل الشهيد صدام حسين من المحيط إلى المحيط يمكن أن تعطي للأمريكان وللإسرائيليين فكرة أوضح عن هذه الأمة، ونتمنى بالتالي أن تستفيد منها طهران في إدراك قدرة الأمة العربية على التمييز بين من هو معها ومن هو عليها.

وعلى إيران أن تدرك ان الأمة العربية هي رصيدها التاريخي والشرعي، وانها إذا كانت اليوم مجزأة وتنهشها عوامل ضعف وتناقضات داخلية، فان إيران ذاتها لا تخلو من عوامل ضعف وتناقضات داخلية بدورها، ويوم تتعرض إيران ـ لا سمح الله ـ لضربة إسرائيلية أو غربية فان زخمها الأول وشارعها الأكبر هو الشارع العربي، الذي تستهين به الآن ولا تحسب له حساباً عبر سعيها الدؤوب مع العناصر العميلة لتفتيت العراق وإنهائه كدولة قوية مستقرة.

إن هؤلاء الذين يحسبون على إيران ويحجون إلى البيت الأبيض لأداء مناسك الخيانة بين الحين والحين، أمثال المدعو عبدالعزيز الحكيم، ويجلسون إلى بوش ليطلبوا منه حماية الشيعة، ويحرصون عل الانفراد به خارج الوفود المرافقة لهم، هؤلاء لا يمكن أن ينفعوا إيران بشيء إذا ما جدّ الجد.

إن ما ينفع إيران هو أن تعمل من اجل عراق قوي موحد قادر ومن اجل نسج أقوى العلاقات مع الأمة العربية ومع قواها الحية ومع الشعب العربي ككل.

وإذا كانت أمريكا قد فشلت في العراق رغم امتلاكها آلة الدمار العظمى في العالم، فان سائر آلات الدمار بما فيها آلة الدمار المذهبي لن تفلح في إنهاء العراق، أو أخذه من أمته، ولا يزال عرب فلسطين يتحدثون عن حيفا ويافا رغم مرور ستين عاماً وكأنهم قد فارقوها البارحة، والذي اسقط رامسفيلد قادر على استئصال تلك النزعة الثأرية البربرية لدى وكلاء السيستاني من أمثال المدعو أحمد الصافي المسمى بالوكيل الشرعي للمرجع السيستاني، والذي كان قد دعا قبل شهر ونصف إلى أن يكون إعدام صدام بين ضريحي الإمامين الحسين والعباس في كربلاء.

هؤلاء الصغار بامتداداتهم الأمريكية والإسرائيلية، وللأسف الشديد الإيرانية، لم يستطيعوا طيلة ثلاث سنوات من بعد صدام أن يقيموا دولة فيها ماء صالح للشرب أو كهرباء أو عمل أو أمان، والمواطن العراقي الذي أصبح يحتاج إلى كفيل ليقيم في كردستان، سيفشل مخططات جهابذة الحرب الأمريكية المتخصصين في الشؤون العراقية، ومقرهم الرسمي قاعدة ليفن وورث في كنساس، كما انه قادر على إفشال مخططات الاستراتيجية الإيرانية الحالية تجاه العراق بنفس القوة.

* كاتب وباحث سياسي من ليبيا

محاولة لتنزيل الفلسفة الى الواقع:

الصورة الدعائية من الهولوكوست حتى اعدام صدام

نزار شقرون*

■ هل ما زال المواطن العربي يحتاج إلى الخطاب الفلسفي في زمن اللهاث خلف الرّغيف وفي دوّامة اليومي؟ هذا السّؤال الذي قاد إلى التّفكير في جدوى الفلسفة اليوم ومدى انسحاق الخطاب الفلسفي العربي فلا فاعليّة لهذا الخطاب في الشّارع العربي الذي أصبحت تحكمه خطابات جديدة وتتنازعه المنابر الإعلاميّة دون أن يمتّن فكره النّقدي، لأنّ الخطاب الفلسفي العربي بقي أسير جدران الجامعات العربيّة وكرّس بابتعاده عن مطارحة قضايا الإنسان منزلة القطيعة مع الشّارع. هكذا بقي الخطاب الفلسفي العربي صفويّاً و«برجعاجيّا» رغم ما يشحن العقل العربي من مواجهات، هو في أمسّ الحاجة إلى آليّات الفلسفة وعقول المفكّرين. وببساطة شديدة يحتاج الإنسان العربي اليوم أن يدخل الخطاب الفلسفي الأزقّة الضيّقة ويمشي على الأرصفة وفي الأسواق حتّى يتلقّف قضايا الإنسان، ولهذا السّبب أسّست الجمعيّة التّونسيّة للفلسفة فضاء جديدا يستوعب مشاغل الإنسان ويبسّط الخطاب الفلسفي، بل يقدّم للفلسفة مواضيع السّاعة لتتطارحها فتكون في قلب الأحداث بدل أن تستمرّ في تجاهل الواقع العربي وتتعالى عن حكيّة المجتمع العربي.

هذا الفضاء الذي تغامر به الجمعيّة الفلسفيّة هو «المقهى الفلسفي» الذي يلتقي فيه المفكّرون والباحثون في الفلسفة ومختلف المثقّفين من مجالات الإبداع المتنوّعة لتطارح مسألة من المسائل وقد شهدت الحلقة الثّانية منه والتي خصّصت لموضوع: «الإنسان اليوم وسلطة الدّعاية والإعلام» جدلا كبيرا بين المواكبين للمقهى، إذ لامس المسكوت عنه في قضيّة الدّعاية وقد قدّمت ورقتان علميّتان للخوض في الموضوع. وكانت الورقة الأولى من تقديم الأستاذة مبروكة العليبي تناولت فيها الجوانب السّلبيّة والإيجابيّة للدّعاية واضعة أسئلة كثيرة حول مدى مشروعيّة الدّعاية للأحزاب والمؤسّسات المدنيّة ذات الرّؤية التّقدّميّة في زمن بدأت فيه هوامش الحرّيّة تتقلّص وبدا فيه المثقّف التّقدّمي غير قادر على عرض مواقفه والدّعوة إلى أفكاره. كما بيّنت الأثر الاستعبادي لهيمنة بعض وسائل الإعلام، على عقول المواطنين البسطاء الذين أفقرتهم مجتمعاتهم من آليّات النّقد والتّقويم فصاروا في شرك التّآمر والتّلاعب غير قادرين على تبيّن الحقيقة من الوهم.

وتميّز النّقاش بمشاركة وجوه ثقافيّة معروفة بنضالها نحو بناء ثقافة وطنيّة بديلة ومن هؤلاء الأساتذة محمد علي الحلواني ونجيب عبد المولى ومحمود بن جماعة وثامر إدريس. هذا وقد قدّمنا مداخلة ثانية لإذكاء روح الحوار وتعميق النّظر في مسألة علاقة الدّعاية بآليّات صناعة القداسة في الوطن العربي، محاولين تنزيل أطروحاتنا النّظريّة في نماذج حيّة تخترق وجودنا:

لقد تطوّر مفهوم الدّعاية فأصبح يعني اليوم استخدام جميع وسائل النّشر كالملصقات والسّينما والتّلفزيون والإذاعة لتمرير جملة من الأفكار السّياسيّة في مجتمع ما والتّبس المفهوم باستخدام جميع الطّرق للتّحكّم والسيطرة في مشاعر الأفراد إلى درجة اغترابهم في إيديولوجيا محدّدة أو في رؤية حزبيّة ولذلك ارتبط مفهوم الدّعاية بأنمطة الحكم الكلياني مثل النّظام النّازي أو النّظام السّتاليني أو الماوي. لكنّ الأنظمة الدّيمقراطيّة سرعان ما تبنّت آليّات هذا المفهوم ليصبح مقوّما أساسيّا من مقوّمات النّظام الرّأسمالي بالتباسه بالإشهار أي بانتقاله من المجال السّياسي إلى المجال الاقتصادي.

ننطلق من الفرضيّة التّالية أنّ الدّعاية طرحت بعمق منصب الصّورة في المجتمعات عبر التّاريخ وأنّها تطابقت مع المنظومات العقائديّة أكانت دينيّة أم إيديولوجيّة. لقد نشأ مصطلح «الدّعاية» في الخطاب المسيحي خلال القرن السّابع عشر، إذ دعا البابا غريغوار الخامس عشر إلى نشر المسيحيّة مستعملا مصطلح Propaganda وهو مصطلح لاتيني سيشحن بدلالة الأنشطة السّياسيّة إبّان الثّورة الفرنسيّة معتمدا على الصّورة كحامل مركزي لمحتوى هذه الدّعاية. ولقد اتّصلت الدّعاية في الحقبة المسيحيّة القروسطيّة وخلال عصر النّهضة وإلى حدود العصر الكلاسيكي الحديث بالصّورة الدّينيّة ممثّلة في الأيقونة، باعتبارها الوسيلة المثلى لاستمالة الأفراد إلى المسيحيّة وللتّأثير في نفوس المسيحيّين أنفسهم، أصبحت الدّعاية رسالة دينيّة عقائديّة تقوم على سياديّة القداسة. لكنّ الدّعاية في إطارها اللاّديني انتشرت خلال الحرب العالميّة الأولى محدثة نوعا من التّلازم بين الصّورة والنّصّ السّياسي الذي اختزلت فيه شعارات تحمل وعودا أو موقفا من الخصوم ووظّف الاشتراكيّون صور قادتهم لنشر أفكارهم في صفوف الأتباع. فانتقلت الدّعاية من الأيقونة إلى البورتريه الرّسمي أو السّياسي معلنة التّخلّي عن العناصر الشّكليّة لتجسيد القداسة ومن أبرزها استبعاد الهالة المقدّسة عن رموز الإيديولوجيا، غير أنّ اختفاء عناصر الشّكل القداسي من الصّورة /الملصق لم يفد تهجير هذه القداسة تماما فقد تمّ استبدال المقدّس الدّيني بالمقدّس الإيديولوجي وبقيت الصّورة محافظة على رمزيّتها ووظائفيّتها رغم الانعطافة الظّاهرة بين الخطابين.

إنّ ما يدعم افتراضنا بأهميّة الصّورة في الدّعاية هو توفّر تقنيات جديدة في بداية القرن العشرين حيث انتقلت الصّورة من المجال اليدوي إلى مجال الاستنساخ الآلي ومن تجليّاته الصّورة الفوتوغرافيّة والسّينما والتّلفزيون (استعمال تقنية طباعة الأوفسات سنة 1904 وفتح أوّل قاعة سينما بباريس سنة 1911) وقد استخدم هذا التّطوّر التّقني لصالح الدّعاية التي تحكّمت فيها الأنظمة الأكثر راديكاليّة وانغلاقا والتي نهضت على رؤية احاديّة للوجود وعرفت بإقامتها لأنظمة رقابة على الأفراد من ذلك أنّ الأنظمة الاشتراكيّة أو ذات الحكم المطلق، خصّصت أجهزة رسميّة لـ«الدّعاية الحزبيّة» فقد أدار جوزيف غوبلز «وزارة الإعلام والدّعاية» في ألمانيا النّازية وتولّى سارج تشاكوتين إدارة «الهيئة الثّوريّة للدّعاية» إبّان الحرب الأهليّة الرّوسيّة وتحوّلت هذه الهيئة في الحكم البلشفي إلى «قسم التّحريض والدّعاية» وامتدّت هذه الأجهزة في جلّ الأنظمة الدّيكتاتوريّة في ما بين الحربين وأثناء الحرب العالميّة الثّانية لتقوم على عناصر موحّدة في الخطاب الدّعائي الذي تجسّد في الملصقات والطّوابع البريديّة والأوراق الرّسميّة والرّايات والأعلام والأفلام السّينمائيّة، وهدف الخطاب إلى صناعة صورة /رمز للشّخص الواحد المنقذ الذي يتّخذ صورة الأب الرّوحي للبروليتاريا (ستالين) أو للعرق الآري (هتلر) ليكون الشّخص المنقذ استعاضة لاشعوريّة عن القدّيس ورؤية الخلاص التي بنيت عليها المسيحيّة الغربيّة والشّرقيّة على السّواء. وتحوّلت الاجتماعات السّياسيّة العامّة إلى فضاء مشهدي للدّعاية، بل إنّ المدن والقرى بشوارعها وأزقّتها صارت جزءا من العمليّة الدّعائيّة التي خرجت من مفهوم الصّورة كحامل ورقي أو آلي ليكون الفضاء المكاني صورة أكبر وأشمل لهذا الخطاب وانتقلنا بذلك إلى سينوغرافيا الدّعاية وتدخّل المؤثّرات الصّوتيّة والضّوئيّة، فحوّلت الدّعاية الفضاءات العامّة إلى أماكن مفتوحة طقوسيّة لا تبتعد في لاوعيها البنيوي عن الطّقس التّطهّري الإغريقي، بينما اعتبر تشاكوتين أنّ «الدّعاية السّياسيّة هي اغتصاب نفسي للجماهير» بل ذهب إلى أنّ ردود فعل الجماهير قائمة على الحركات البافلوفيّة وبذلك تكون الدّعاية وسيلة ترويض الأفراد.

إنّ الدّور الخطير الذي لعبته الدّعاية في النّصف الأوّل من القرن العشرين تسرّب إلى المعسكر الرّأسمالي بأشكال تقنيّة أكثر تقدّما دون أن يسلم الفرد الحداثي من آليّات التّحكّم والتّأثير التي وضعتها الدّعاية لنفسها منذ أمد بعيد وهو ما يجعلنا نفترض بأنّ الدّعاية في الأنظمة الكليانيّة أو الدّيمقراطيّة لا تختلف من حيث الطّابع قدر اختلافها من حيث الأشكال التي بدت مع غطرسة الرّأسماليّة وتحوّلها إلى نمط امبريالي أعنف في نتائجها ودرجة استلاب الأفراد بل والشّعوب فيها.

إننّا نمعن أكثر في افتراضنا بأنّ الدّعاية شكّلت منصبا جديدا للصّورة دون أن تتنصّل الصّورة من قاعها القداسي، فقد أصبحت الصّورة ذات سلطة على الكلمات وإذا كانت القداسات الدّينيّة أعلنت منذ العهد القديم بأنّ البدء أسّه الكلمة فإنّ القداسات الجديدة «اللاّدينيّة» في المعلن والغارقة في الدّيني في الباطن أعلنت بأنّ البدء هو الصّورة. فالتبست الدّعاية السّياسيّة بالإشهار، التباس الطّموح السّياسي باستراتيجيّة التّوسّع والهيمنة الاقتصاديّة وفي حين بدا الإشهار انسيابيّا وإغوائيّا، حافظت الدّعاية على صلابتها وعنفها مع شيء من التّلطيف الذي يستعمل كمساحيق تجميل لئلاّ تذكّر الدّعاية الرّأسماليّة بالحقبة الدّعائيّة للأنظمة الدّيكتاتوريّة السّابقة، فتكون الدّعاية في المجتمعات الدّيمقراطيّة وديعة في نصبها لشرك التّحكّم. ولا شكّ أنّ الإشهار استعار العنف في بعض نماذجه من الدّعاية كما استفادت هذه الأخيرة منه أيضا. لكنّ الإشهار يبقى مجرّد جزء من الدّعاية.

وقد استحكمت الصّلة بين الدّعاية والإشهار استحكامهما في المقدّس وصناعته، إذ تحوّل عصر الاستنساخ الآلي إلى عصر صناعة القداسة بامتياز. وإذا كان رولان بارت قد انتبه في قراءته السّيميائيّة للمنتجات الاستهلاكيّة، إلى الصّلة الجوهريّة المعقودة بين السّيّارات وبين الكاتدرائيّات القوطيّة، فإنّه بيّن ضمنيّا أنّ لكلّ عصر أساطيره التي تنهض على شعور ما بالقداسة. وعلّنا نفترض بأنّ الخطاب الدّعائي المعاصر يمثّل خطابا أسطوريّا يحمل دلالة ثانية وهو ما أشار إليه بارت أيضا ومن خصائصه أنّه يقيّد الفرد ولا يحرّره وهو تكراريّ وغير دافع للخلق ما دام يهدف إلى إخضاع المجتمعات إلى جدول إرشادي واحد.

إنّ هذه الفرضيّة الثّانية التي انتهينا إليها والقائمة على اعتبار الدّعاية قوامها الصّورة ومآلها صناعة القداسة تجعلنا نتخيّر مجموعة من الأمثلة التي تقترب من مدار تفكيرنا راهنا ـ مع الإشارة إلى أنّ فعلنا الانتقائي قائم على استشعار تهديد ما ـ ويواجه آليّات ثلاث أصوليّات متنامية، أولاها الأصوليّة اليهوديّة وثانيتها الأصوليّة الإسلاميّة، وثالثتها الأصوليّة المذهبيّة.

الاصولية اليهوديّة: محرقة الحظّ السيئ:

ما زالت الخارجيّة الإسرائيليّة تستمرّ في الدّعاية إلى عذاب اليهود في الفترة الهتلريّة وإلى ما تسمّيه «الكارثة» إشارة إلى «الهولوكوست»، إذ أنّ همّها الرّئيسي هو الاستمرار في إنتاج الخطاب الأسطوري حول هذا الحدث الذي يجرّم دوليّا كلّ من ينفيه فيحاكم ويسجن باعتباره معاديا للسّامية، (ناهيك محاكمة إدغار موران وروجيه غارودي) وتنطلق الحملة المتواصلة من صور الإبادة الجماعيّة الافتراضيّة مستخدمة السّينما والمواقع الالكترونيّة بل إنّ الأفلام التي أنتجتها السّينما الأمريكيّة للدّعاية إلى هذا الحدث خلقت تعاطفا دوليّا مع اليهود وجرّمت الألمان أكثر وأصبحت قضيّة اليهود الأصوليّين الرّئيسيّة بعد الحرب العالميّة الثّانية هي اضطهاد اليهود. وهذا ما تؤكّده الصّفحة الرّئيسيّة لموقع وزارة الخارجيّة الإسرائيليّة التي تفتح بمقال دائم للكاتبة الإسرائيليّة عيريت أبرامسكي تحت عنوان «الكارثة الدّعاية: اليهود هم حظّنا السيء» حيث تنطلق من شعار مركزي للدّعاية النّازية ضدّ اليهود في سنة 1932 وتجدّد استخدامه لتوظيفه دعائيّا في الاتّجاه المعاكس.

لقد كانت الصّحيفة الألمانيّة الأسبوعيّة «دير شتيرمر» (المهاجم) تكتب في أسفل كلّ صفحاتها بأحرف سميكة «اليهود هم حظّنا السيء» وتنشر رسوما كاريكاتوريّة يظهر فيها اليهود معقوفي الأنوف وشبيهين بالقرود. وكانت أبرامسكي تستفيد من هذه الدّعاية لتبيّن بجلاء صورة اليهودي في تلك الفترة وتؤثّر في نفوس الأجيال الجديدة من اليهود الذين نشأوا على هذا الخطاب. فلم يعد من اهتمامات الخارجيّة الإسرائيليّة تشويه صورة العربي في السّينما كما كانت تفعل إبّان احتدام الصّراع العربي ـ الإسرائيلي، فقد اتّجهت اليوم من جديد إلى تحديد أولويّة دعائيّة وهي لفت أنظار العالم إلى «المحرقة» أي إلى الأساس التّاريخي الذي بوّأ اليهود الأصوليّين مقاليد التّحكّم في العالم.

الأصوليّة الإسلاميّة: شفاعة الإسلام الأمريكي

كنّا قد أطلقنا مصطلح «الإسلام الأمريكي» في السّنة الماضية، وعنينا به نوعا من التّديّن الذي بثّته الإدارة الأمريكيّة في العالم العربي، وهو لا يتّصل بالإسلام الطّرقي بل هو نوع من الإسلام «البرجوازي» الذي يناقض بالبداهة الإسلام السّياسي. وكنّا قد أشرنا إلى رمز من رموز هذا الإسلام الأمريكي، وهو «الدّاعية عمرو خالد» وسرعان ما تلقّفت وسائل